العرب
الخميس 2019/09/12
السنة 42 العدد 11465

ليس على كتاب الأدب للكبار أن يكتبوا الأدب للصغار

هاشم غرايبة: ما من كاتب يمكن أن يكتب سيرة مطابقة للواقع

تبقى التجربة الذاتية للكاتب معينًا ثريّا ينهل منه في إبداعه الأدبي، فيصنع عوالمه المتخيّلة من مرتكزات سيرية، وهذا التخييل هو ما يفارق النص الأدبي بكل أشكاله عما هو واقعي وذاتي وخاص. "العرب" حاورت الأديب الأردني هاشم غرايبة حول البُعد الذاتي في أعماله الأدبية وسيرته الذاتية التي صدرت حديثًا، متطرقين للحديث عن أحدث أعماله وعوالمه الأدبية المتنوعة.

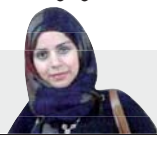

حنان عقيل
كاتبة مصرية

تحوي أعمال الكاتب الأردني هاشم غرايبة الروائية فصولًا من سيرته الذاتية لكنه مؤخرًا أصدر سيرته الذاتية بعنوان "سنة واحدة تكفي".. يقول في هذا الصدد "السيرة ذاكرة. عندما فتح السؤال خزانة الذاكرة، ظهرت لي الصور مُحسّنة، وكأنها 'فوتوشوب'. شعرت أنها تخصّ شخصا آخر، من هو الذي يقبع هناك في 'القاووش' الجنوبي لسجن أربد؟ ذلك الآخر هو أنا، لكن من منّا نحن الاثنين، يكتب الآن عن تلك التجربة؟ من هو ذلك الطفل الذي كان يحصي النجوم في قريته حوارة ويلاعبها حتى تهجع حول فراشه كسرب يمام. وبماذا يفيد الجواب ما دام الكتاب بين يدي القارئ يُؤوله كيفما شاء؟".

يتابع غرايبة "خيط رفيع ومخاتل يفصل بين الخاص والعام، والذاتي والموضوعي، المتخيّل والواقعي في النص الأدبي، فعندما تحضر أجزاء من تجربة الكاتب الحياتية في نصّ ما، فإنّ ما يستدعي هذا الجزء أو ذاك ويعطيه حق المثول في معمار العمل الأدبي، هو النسق الذي تسير به الرواية أو القصة أو المسرحية، ومدى ملائمتها للبناء الفني للنص. عندها يذوب الجزء في الكل، يصبح تأويله خاضعا لمنطوق الجنس الأدبي بكليته".

الكاتب لا يكتب ذاته كما هي (لوحة للفنان عمر النجدي)

الكتابة والكاتب

عن أوجه الاختلاف بين حقليْ السيرة الذاتية والكتابة الروائية، يقول هاشم غرايبة "الاختلاف بين 'سيرة' وسرد روائي أو قصصي أو مسرحي يكمُن في 'القصدية'، قصدية اختيار الجنس الأدبي. عندما تكتب بضمير المتكلم فأنت تمتحن شجاعتك بتبني فضائحك وزلاتك واضطراب مشاعرك، ويكشف قدرتك على الارتفاع بالواقع المعيش إلى مقام الفن. الذاكرة تُبقي وتحذف على هواها، كثيرة هي الأحداث الصغيرة جعلتها كبيرة، والأحداث الكبيرة جعلتها صغيرة. فنكتشف أن استعادة المشهد أكثر متعة من معايشته. هكذا نظرت إلى الخلف بروية، واخترت 'سنة واحدة' لتمثلني، فكتاب 'سنة واحدة تكفي' ثلاثة فصول، الفصل الأوسط منه كتبته بضمير الغائب لأتخفف من عبء 'الأنا'، ولأنبّه أن ما من كاتب يمكن أن يكتب سيرة مطابقة للواقع ولو كان القديس أوغسطين".

"ديوان الفجر: حكايات وأشعار عن مجتمع الفجر" هو عنوان الكتاب الجديد الذي ينتظر الكاتب صدوره، وعنه يقول الكاتب "حادثة عرضية قادتني إلى مضارب الفجر، وأغرتني بكتابة رواية 'حميد كيا والآنسة خواتم' التي ما زلت عاكفا على تعشيبها وتمشيطها وسقايتها. أثناء كتابة الرواية تكوّن لديّ أرشيف غني عن الفجر: حكاياتهم. أشعارهم. سلوكياتهم. علاقاتهم الداخلية. معتقداتهم.. فكان 'ديوان الفجر' وهو نتاج بحث ميداني ومعايشة عن قرب دامت سنتين ونيف مع مخيّمات الفجر في الأردن".

ويضيف "الفجر يميلون إلى المحو والنسيان. والكتابة تدوين وتذكير، وإذا كانت الملل البشرية قد قدّست مدوّناتها المثيولوجية، فإننا لا نجد لدى الفجر نصا مقدسا، ولا حكاية مركزية تمجد الأجداد والجدات. لكننا نجد حكايات وأشعارا وأمثالا وسلوكيات وقيما وعادات وتقاليد مشتركة، تشكّل نمط عيش مقدّسا عندهم، تحرسه 'لعنة خفية' أو 'نعمة مقدسة' لا ندرك سرّها، لكننا نحاول أن نستشف أيقوناتها المتخفية عبر أشعار وحكايات شفوية متحركة عابرة للزمان والمكان".

ثمة اهتمام بالتاريخ، على وجه الخصوص ما يتعلق بوطنه، في عدد من أعمال الكاتب الروائية، وهو ما يطرح السؤال حول كيفية التعامل مع المادة التاريخية وتوظيفها روائيًا، وهنا يقول غرايبة "إن حادثة حدثت في الماضي أرويها الآن، يعني أني أرويها كما تحدث الآن في ذاكرتي، وليست كما حدثت في الماضي، أستعير الواقعة التاريخية والنقش القديم والوثيقة المتفق على صحتها وأعيد غرسها في غابة النص لتؤتي أكلها من جديد. عندما حوّلت رواية 'أوراق معبد الكتبا' المزق والشظايا والمعارف والوثائق والنقوش والسرود إلى بنية كلية متجانسة نابضة في رواية تُعيد بناء الماضي لتكشف معنى الواقع المعيش وغايته، صارت سردية موازية للتاريخ، ولو صنّفت أنها تاريخية.

ويتابع "التاريخ مليء بالمغالطات، ويغصّ بالأخبار المتناقضة حول الواقعة الواحدة، أما الرواية فتميل إلى سلّ الخيوط الملوّنة والقوية من صفحات التاريخ لتنسج منها بساطا متماسكا وجميلا وجاذبا، وقادرا على جذب القارئ إلى معارف إنسانية جديدة".

إتقان الصنعة

بالحديث عن أعماله الأولى، يقول غرايبة "أود لو أعيد صياغة كل ما كتبت سابقا. فقد صرتُ أكثر إتقانا لـ'الصنعة'، لكني ما زلت فخورا بمجموعتي القصصية الأولى 'همموم صغيرة'، وروايتي الأولى 'المقامة الرملية'. جدي ومعلّمان في مراحل التعليم المدرسي هم من وضعوا قلمي في خدمة الأدب؛ جدي كان قاصا ماهرا وكان الناس يحبّونه لأنه يروي لهم الحكايات في المساء، وبعد عناء يوم حصاد طويل، كان يجتمع عنده أهل القرية.. وكان أهل قريتنا يحبّونه لأنه يقُصّ عليهم الحكايات".

في كتابه "المخفي أعظم" الحاوي لعدد من آرائه النقدية، وجّه غرايبة سؤالا "إلى أين يسير الأدب" واستعار إجابة رولان بارت "يسير نحو ذاته، ماهيته، نحو نهايته التي هي اختفاؤه". وفي هذا الصدد يوضّح غرايبة أن التقدّم التكنولوجي الذي يتسارع كل يوم سيلغي كثيرا من المهن، وسيستغني البشر عن كثير من المهارات، وربما ستزداد حاجته للمهارات الذهنية ومن بينها 'القص'. ولكن ما شكل القص وإلى أين ستؤول الأجناس الأدبية؟ من هنا، يتوقف أمام الأسئلة التي توجهها وسائل التواصل الاجتماعي (بماذا تفكر؟ ماذا يحدث؟ شارك قصتك..) ويتساءل هل سيصوغ تويتر والفيسبوك الأجناس الأدبية المستقبلية.

ويضيف "يشهد الأدب الحديث تحولات كبيرة في الشكل وفي المضامين منحازا ومتفاعلا مع ثقافة الصورة. ولكن الصورة بحاجة إلى حكاية ليست كالقصة والرواية التي ألفناها، وشعرا ليس كالشعر الذي نحفظه. الكتابة التفاعلية اليوم فيها شعر ليس كالشعر الذي طرب له جيلنا. وقصة ليست كالقصة المصنّفة أكاديميا، هل ستصمد الرواية أمام ما تزعزعه الميديا الحديثة من ثوابت؟ ربما. حكايات الصغير حتى ينام، وأغاني الأمهات هي الأقدر على الصمود مستقبلا، وربما سيقول أحفادنا: كان أجدادنا يروون القصص ويحبون الروايات! ربما سأعدل على مقولة رولان بارت، فأقول: يسير الأدب نحو ذاته، نحو ماهيته، نحو "بدايته".

> الرواية تميل إلى سل الخيوط الملونة والقوية من صفحات التاريخ لتنسج منها بساطا متماسكا وجميلا وجاذبا

انتقالا للحديث عن أدب الطفل الذي يحضر في إبداع غرايبة، يؤكد الروائي أن الكتابة للأطفال محكومة بالظروف العامة: سياسات التربية والتعليم، السلوكيات المجتمعية والأسرية السائدة. عمليات الإنتاج والمونتاج لكتاب الطفل، مدى حساسية الكاتب للفئة العمرية المستهدفة، كل هذه الظروف أنتجت عربيا أدب أطفال ضعيف، فعندما تحصل النشاطات الموجهة للأطفال على نصف ما تحظى به الكتب المدرسية في المجتمع العربي سيزداد الطلب على ما ينتجه المبدعون للأطفال، وسيحتدم التنافس ويتحسن المنتج.

ويتابع "لا أدعو الكتّاب الذين يكتبون للكبار كي يكتبوا للصغار. بل أدعو المتخصصين بالكتابة للأطفال أن يصيروا كتّابا كبارا في ميدانهم. من جانبي، حرصت دائما على امتحان قصتي مع الفئة العمرية المستهدفة. لأن القصة التي يُشيح عنها الطفل لا ينفعها تقريظ الكبار، ولا ولع التربويين بالوعظ والإرشاد، ووجدت أفضل درس لي في الكتابة للأطفال في كتاب "الأمير الصغير" للكاتب الفرنسي أنطوان دو سانت إكزوبيري. وهو رواية صغيرة ليست موجهة للأطفال، لكنه كتاب يفهم الطفل فهما عميقا. ويدلنا على مواطن قصورنا في فهم كيف يفكّر الطفل.

الثورة الرقمية والنرجسية الجديدة

يتحدث جميع المفكرين والأدباء والعلماء اليوم عن الثورة الرقمية، ثورة ربطت أطراف الأرض بعضها ببعض، وسهلت التواصل والتعبير، ولكنها خلقت نرجسية جديدة على نطاق واسع، نرجسية معولمة ومنغلقة في الوقت ذاته، قد تكون لها مضارُّ نفسية عميقة إذا لم يتمّ تجاوزها.

أبوبكر العيادي
كاتب تونسي

لا جدال أن الثورة الرقمية أحدثت انقلابا جذريا في حياة البشر، وفرضت عليهم أنماطا من السلوك كما لم تفرضها أيّ ثورة من قبل، ولكنها رغم الفتوحات الباهرة والخدمات الجليلة التي قدّمتها للبشرية، كربط أطراف كوكبها بعضها ببعض، وتيسير تواصلها وقضاء شؤونها، أوجدت مشاكل جديدة، ليس أقلّها الشعور بالانغلاق، وخلق ما أسمته عالمة التحليل النفسي الفرنسية كلوتيلد لوغيل "النرجسية الجماهيرية"، وهي نرجسية جديدة، معولمة ومنغلقة في الوقت نفسه.

فالملاحظ اليوم أن عالم الإنترنت، بشتّى مكوّناته، كالمواقع الاجتماعية ومواقع التعارف والزواج، تستقطب الليبيدو كله تقريبا، إذ يبدو الناس منجذبين إلى نظرة الآخر الذي يتأملهم من وراء شاشته، ويجدون لذة في عرض جوانب من حياتهم وخصوصياتهم لأصدقاء حقيقيين، وحتى افتراضيين.

من النادر ألا يفتتح إنسان اليوم نهاره بالتطلع إلى جهاز "السمارتفون" أو الأيفون" كي يعرف عدد اللايكات التي حصلت عليها تدوينته الأخيرة، أو صوره الحميمة التي نشرها على الملأ، ويعقب على تعاليق أصدقائه الحقيقيين والافتراضيين على الشبكة، فينتابه شعور بالغبطة أو الكآبة لأن صدى منشوراته يكيّف مزاجه.

نشر الأشياء الحميمة على الشبكة رهين التعاليق التي تطلق كيفما اتفق، باندفاع غريزي في أغلب الأوقات، ما يجعل صاحبها خاضعا لتقييم دائم من أصدقائه، وهو تقييم يفترض أن يغذّي نرجسيته، ولكنه في الواقع يجعله تحت رحمة أحكام الآخرين.

والشبكة، في إخراجها للحياة الخاصة بذلك الشكل، صارت "أنا عليا" جديدة، فالعلاقة معها تمثل بعدا نرجسيا دون شكّ، وتمثّل أيضا انفتاحا على فضاء لا ندري من يقيم فيه، يقوم مقام ذلك الملاحظ المجهول الذي يسميه فرويد "الأنا العليا"، وهي شخصية المرء في صورتها الأكثر تحفظا وعقلانية، حيث لا تتحكم في أفعاله سوى القيم الأخلاقية والمجتمعية والمبادئ، بعيدا عن الأفعال الشهوانية أو الغرائزية. يضاف إلى ذلك تسابق مستمر مع الآخر، من خلال البحث عن أكبر عدد ممكن من اللايكات والتعاليق، ما يمثّل رغبة متجددة في الاعتراف، لا تعرف نهاية، لأن الشبكة جعلت لكي لا تتوقف أبدا، ما يولّد لدى الأفراد نوعا من القلق والضيق الدائمين.

في "طور المرآة"، بيّن لاكان أهمية اللحظة التي يكتشف فيها الطفل صورته في المرآة، قبل أن يعي في فرح غامر أن له جسدا منفصلا عن الآخر، ما يعني أنه متميز ومفرد، ولكن مرحه ذاك لا يدوم، فانبهاره بصورته لا يكون بنفس الكيفية أمام المرآة، دون أن يعني ذلك أن نرجسيته زالت، بل إنّ إدراكه لذاته صار يمر عبر قدرته على قول "أنا"، وتبقى صورة جسده سندا خياليا. ولاكان يميز بين المتخيل والرمزي، بين الذات كتميّز عن الآخر، والـ"أنا"، الذي لم يعد مرتبطا بالصورة وحدها بل بكلام الآخر، ما يسمح له بالتموضع في عالم رمزي.

أما اليوم، في هذا العصر الرقمي الذي اكتست فيه النرجسية هذا البعد، فقد بات السؤال: أين توجد الـ"أنا"؟ تجيب كلوتيلد لوغيل بأن مشاركة الفرد حياتَه مع آخرين هي نوع من محاولة التفرّد، وحمل الآخر على الاعتراف به، ولكن في الأمر خدعة، لأن النرجسية إذا لم تنفتح على إمكان التنصل من تلك الصلة بالصورة تصبح قاتلة، فهي تحبس الفرد في سجن نرجسي يجعله لا يهتدي إلى تحقيق رغبته، فلا يرى الرغبة إلا في صورة الآخر، وفي ما يُريه إياه الآخر، وهذا لا يزيده إلا عذابا. ففي تلك المواقع، لا ينفك مستعملوها يظهرون إلى أي حدّ يتمتعون بالحياة، دون أن يعيروا اهتماما لما يلقاه غيرهم من حرمان، أو مآسٍ، وما يعانونه من أمراض وآلامٍ.

> مشاركة الفرد حياتَه مع آخرين نوع من محاولة التفرد، وحمل الآخر على الاعتراف به، ولكن هذا خدعة

هذه النرجسية الجديدة تتميز عن الأشكال النرجسية القديمة لكونها تجاوزت ما كان لاكان يسميه "الصغار الآخرون" وخلقت أنواتٍ مضاعفة، لا تتألف من الأصدقاء الخُلّص أو من المنافسين المقربين فحسب، وإنما أيضا من عدد كبير من الأصدقاء الافتراضيين، ما ضخّم هذه النرجسية حدّ الشطط، وولّد مزيدا من القلق والضيق. لقد حدّد لاكان ثلاثة أبعاد للفرد: البعد النرجسي الأساس الذي يمر عبر نظرة الوليّ ويقيم علاقة مع الآخر. والبعد الرمزي الذي يمر عبر الكلام والتعبير عن الرغبة قولا. والبعد الغريزي الذي يؤدي الإفراط فيه إلى خنق الرغبة والفرد معًا. فكلما ازداد الاندفاع الغريزي صار المرء أداة لغريزته، وسار بإرادته إلى النهاية، كالسائر إلى حتفه بظلفه، على غرار نرسيس، بطل الأسطورة كما رواها أوفيد في "التحولات".

قد يستغرب بعضهم أن يكون لتلك الأدوات التكنولوجية البسيطة هذه الآثار العميقة، ولكن الواقع يثبت أنها ليست بتلك البساطة، فهي امتداد للجسد، وما النرجسية إلا مسألة جسد، لا مجرد حبّ للذات، فالمرء الذي يفقد اليوم هاتفه، أو ينقطع عنه الوايفي يحس أنه خرج من حقل الآخر، وغادر الرابط الاجتماعي.

لئن كانت النرجسية ضرورية لتكوين الفرد، فإنها تصبح قاتلة ما لم يتمّ تجاوزها، ولا يكون ذلك حسب عالمة التحليل النفسي الفرنسية إلا بإضفاء قيمة على الرغبة والكلام، والاستعاضة عن الشبكة بالأدب والفن والسينما والمسرح، وكلّ ما من شأنه أن يساعد المرء على اكتشاف ذاته.

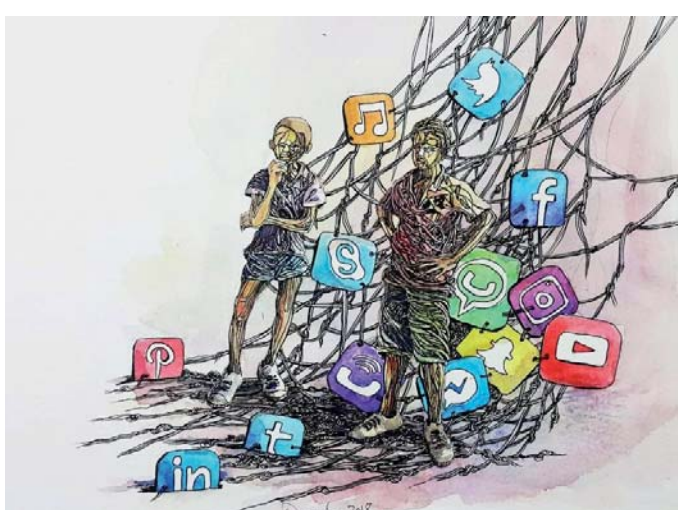

التكنولوجيا المخاتلة (رسمة للفنان محمد عبدالرسول)